

لماذا وضعت هذا الكتاب؟

من الظواهر العجيبة التي تسترعى نظر الباحث المدقق في الثورات الفكرية والانقلابات التاريخية : أن البيئة التي تختمر فيها بذور هذه الثورات والانقلابات ، وتكمن فيها براعمها ودوافعها هذه البيئة لو درسها الباحث لخرج منها شيء عجيب حقاً وهو خصامها للدين والحادها به ، والعمل في غير شفقة ولا رحمة ولا تدبر ولا ترو على هدم مبادئه ومحر آثاره والمتبع لتاريخ هذه الثورات الفكرية والحركات الانقلابية يظهر له ذلك كله في وضوح وجلاء ويقين ولنتحدث عن هذه الثورات القريبة التي ما زالت تؤثر في التفكير البشري حتى الآن وأولى هذه الثورات ثورة أوروبا على الكنيسة في أواخر القرون الوسطى هذه الثورة التي كانت تمتاز بطابع السخرية من رجال الدين والتحلل المنصرف من الإيمان بالله ومن قواعد الأخلاق التي رسمها الدين للناس . فكان طابعها الاعتماد على العقل وحده في النظر إلى الأشياء والناس والكائنات وليس أدل على ذلك من أن الفلاسفة التي آمن بها أدباء أوروبا ومفكروها في ذلك الحين واتخذوها مادة لغذائهم العقلي وأخذوا يقيسون آراءهم وتصورهم للأشياء على ضوءها وبوحى من هديها لم تكن الفلاسفة اليونان الوثنية الملاحية التي لم تكن تؤمن برسل ولا بأنبياء ولا آلهة . والتي وضع سقراط أسسها وأقام دعائمها من بعده تلميذه أفلاطون وأرسطو ليس . هذه الفلاسفة التي كانت قائمة على التأمل والفكر والإيمان بالعقل ومحو أي قيد يقيده ويجعله قابلاً في دائرة محدودة لا يريم منها ولا يحيد عنها هذه الفلاسفة التي كانت أول لبنة من لبنتها هذه الجملة المشهورة التي كانت مكتوبة على معبد دلفي والتي اتخذها سقراط شعاراً له (اعرف نفسك بنفسك) فكانت ارتفاعاً للفرد وإيماناً بالعقل ومقدرته وقوته وكانت تقديراً

للفكر الحر الذى كان طابعه الاستقلال وعدم الاعتماد على تقاليد أوردین
أوعرف لم يكن سقراط يؤمن بالله اليونانيين (أبولون) ولم يكن يتبع شيئاً من
مبادئه أو تعاليمه وإنما كان يسخر منه ومن اليونانيين فى محاوراته ونقاشه مع
تلاميذه وقد ظل معتصماً بذلك حتى وهو فى أشد نكباته وأعصب وقت فى حياته
يوم أن وقف أمام قضائه ليحاكم على خروجه على الدين وعمله على هدم العرف
والثقاليات فلقد سخر من الدعوى وسخر من قضائه حين طلبوا منه أن يدافع عن
نفسه لأن إيمانه بعقله وتقديسه لحرية الفكر وبصيرة الإنسان كان يملك عليه
نفسه وحواصيه فكان يعتقد أن إقامة مثل هذه الدعوى عليه عبث من القوم
وضرب من الخزي والعار وكان من نتيجة ذلك أن حكم عليه قضائه بالاعدام
فتقبل الحكم راضياً مبتسماً ساخراً لأن هؤلاء القضاة قد حكموا على جسمانه
المادى بالفناء ولكنهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يحكموا على آرائه الفكرية
وفلسفته العقلية بالزوال والاعدام وكان أن تجرع السم فى رباطة جأش رائعة
وفى غير ما جرع ولا مال وظل حتى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ناغياً على
اليونان فكبرهم منكرأ عليهم معتقداتهم وتقاليدهم لم يتطرق إلى نفسه ضعف
أو خور أو شك فيما قال بل لم يندم على ما كان .

هذه هى فلسفة اليونان بتحليلها وانطلاقها وعبادتها للعقل وانكارها كل شيء
غيره هى التى اتهم بها مفكرو أوروبا فى ثورتهم الفكرية وأول نهضتهم الحديثة
حتى جاء هذا العصر الذى يؤرخونه بعصر التنوير مجدداً العقل مزهواً به منكرأ
الروح ساخطاً على كل مظهر من مظاهرها وهو عصر الفيلسوف الفرنسى
(فولتير) الذى بلغ فيه العقل منزلة من القدسية والألوهية لم يكن يحلم بها

ونترك هذا الآن لننتحدث عن ثورتين خطيرتين حدثتا فى قرننا هذا الذى نعيش
فيه - القرن العشرين - وأولى هاتين الثورتين هى ثورة الشيوعية فى روسيا
والدارس السيكولوجى لنفسية هذه البيئة التى احتضنت تعاليم (كارل ماركس)
البروسى اليهودى واعتنقت مبادئه وأرهفت أذنيها لصوته يخرج بنتيجة غريبة
غاية فى الدهشة والعجب فإن هذه البيئة كانت تؤمن قبلاً بالمسيحية وكانت تخضع

معيشتها ونظم حياتها لتعاليم القساوسة والرهبان وكان هؤلاء القساوسة والرهبان أنفسهم يدعون الناس إلى الزهد والقناعة والاتكال والذلة والمسكنة والمحافضة على النظام الامبراطورى القائم نظام القيصرية ونظام الطبقات من أمراء وأشراف ونظام الإقطاعيات هذه التى كانت تجعل من روسيا كلها وهى الارض الشاسعة الواسعة ضيعة لعمداء النظام القيصرى القائم بل كان هذا النظام يحمل فى ذاته امتهاناً مخيفاً للكرامة البشرية لأنه كان يجعل غالبية أفراد الشعب سنخرة وعبيداً لهؤلاء الأشراف والأمراء بل لهذه الضياع التى يملكونها لأنهم كانوا تابعين لها يباعون ويشترى كما تباع هى وتشترى ولم يكن القساوسة والرهبان ورجال الكنيسة منكرين لشيء من ذلك بالقول أو الفعل وإنما كانوا يسكرون الناس بروحانيتهم وينيمونهم بمواعظهم هذه التى تستعذب الذلة والمسكنة والخضوع ومن هنا ندرك كيف تقبلت روسيا مبادئ (كارل ماركس) واحتضنتها وجعلتها انجيلاً لها ومن هنا ندرك أيضاً كيف كان عداؤها للدين بغلوه واسرافه حتى قال لنين أبو الثورة (إن الدين مخدر للشعوب مؤخر لها عن النهوض والكمال)

فلولا هذه الظروف الاجتماعية السيئة التى كانت تسود روسيا فى عهدها القيصرى البغيض ولولا هذا الاستغلال والظلم الذى ظهر بأشجع صورة وأتمى ما يتصوره عقل الإنسان ، ولولا جمود رجال الدين وانحطاطهم ونفاقهم وتفكيرهم الرجعى لما وجدنا هذه القسوة الطاغية ولا هذا العنف المتغالى الشامل سواء على النظام القائم أو على الدين ونظمه وتعاليمه والكل ما يمت إليه بصلة من قريب أو بعيد

هذه هى روسيا القيصرية وما كان يكتنفها من عوامل الانحطاط والفقر الخلقى والافلاس الاجتماعى والجشع الاستغلالى والعربدة الرأسالية .

وهذه هى الثورة الشيوعية التى كان يمكن ورامها من روح التدمير وبواعث السخط ما جعلها لا تلوى على شيء فى طريقها لأنها ترفع عن كادها عبئاً ثقيلاً بخيئاً ولأنها تستنقل نفسها من ظلم صارخ مزمن لم تكن تهمس به لأنه لم يكن

يوجد من بينها إليه ولأن رجال الدين وأرباب الكنيسة كانوا آخذين على أنفسهم عهداً بقتل كل نزعة وهى فى مهدها ترمى إلى التحرر من الفقر والظلم والمسكنة كان رجال الدين لشهوات فى نفوسهم خبيثة وحرصهم على بقاء العهد الحاضر على حاله الذى يتمتعون فيه بجواهرهم المادى وسلطانهم الروحى وأولعقليتهم التقليدية الرجعية التى لم تكن تهضم ولا تقبل أى طريقة من وسائل الإصلاح ما دامت تحمل فى طياتها روح التجديد والابتكار .

كان رجال الدين هؤلاء هم العقبة السكود فى سبيل كل تقدم أو اصلاح وإذا فوجب القضاء عليهم قضاء لا هوادة فيه وإذا فوجب إزالتهم وعدم الاعتراف برسالتهم هذه الروحية التى قتلت روح الابتكار وعطلت التقدم والاصلاح كل هذه الحقب الطوال .

وقد كان من عداء هذه الثورة للدين الذى كان يمثله هذا الرهط من القساوسة والرهبان وقد تقبل أفراد الشعب من زعماء روسيا ومفكرىها هذه الدعوة الى هدم الدين بحماسة وقوة واقبال واستبدلوا إنجيل عيسى بإنجيل (كارل ماركس) ولولا أنى اشفق من إطالة البحث فى هذه الصفحات اليسيرة القليلة لحدثك عن شى لا ينفد من حماقة رجال الدين وجودهم وعقليتهم التقليدية وارتكابهم اخطاء شنيعة ومسئوليات جسيمة فى حق الدين وفيما أودى به وما انصب عليه من هذه اللعنات والسخطات واسكن لنترك ذلك لأن على أن نحدثك عنه مرة أخرى فى موضعه من هذا الكتاب . ولم يبق إلا أن ننتقل بك الآن إلى الثورة الثانية متأملين مسهبين حسب ما تنسج له مقدمة هذا الكتاب لأن هذه الثورة تعيننا أكثر من غيرها لأنها حدثت من أمة اسيورية شرقية كانت تشترك معنا فى المزاج والعقيدة وكانت تربطنا بها روابط عدة : روابط تاريخية وروابط اجتماعية بل كنا مرتبطين بها فيما هو أخطر من ذلك فكان فى يدها مصيرنا ، وكانت ترسم لنا مجرى حياتنا ، وتتحكم فىنا فى كل شىء بحكم الخلافة الاسلامية التى كانت مركزها حينذاك .

لننتقل الآن إلى (تركيا) ولنتأملها فى ثورتها العنيفة وانقلابها الخطير فإننا

نجد هذه الدولة التي كانت الرأس المدبرة واليد الموجهة للعالم الاسلامي بحكم الخلافة . قد انقلبت من تدين بالدين وحرص عليه ومحافظة له إلى الحاد مسرف به وإلى سخط عام ليس على الدين الاسلامي فقط وإنما على الأديان جميعاً . وعلى ما سمته العقلية الاسيوية بوجه عام . ولننقل الآن بعض فقرات من كتاب السكاتب التركي عاصر الانقلاب التركي واسمه (قاييل آدم) واسم السكاتب مصطفى كمال انرى إلى أى حد كانت تغتور العقلية التركية هذه البراعث والعوامل التي ساعدت على نجاح حركة مصطفى كمال قال السكاتب التركي (١) إن العقلية الأوروبية هي العقلية التي تسقى وحاجات هذه الحياة الدنيا ونحن إنما نتبع ما توحى إلينا به هذه العقلية بحكم أننا موجودون في هذه الحياة أما العقلية الاسيوية ، فالعقلية التي تلائم الحياة الآخرة فإذا انتقلنا إلى الحياة الباقية فهناك نتبع ما توحى به هذه العقلية)

(لم تسلم الأمم الاسيوية يوماً من الفقر والتعاسة وليس لهذا من سبب سوى أنها اعتادت على أن تستقرىء حياتها المعيشية كلها من تشريعها الديني المقدس وإن تقف على طابع آخر غير هذا إذا ما قلبت تاريخ مصر والهند وفارس واليابان القديمة والصين وبلاد العرب فإن هذه الأمم لجهلها قد نسبت لأمرائها وسلطانها أو لغيرهم من مقدمى الانتهازين صفات قدسية حيناً أو سلطة إيمانية حيناً آخر وكان من نتائج هذه العقلية أن تردت الأمم الاسيوية في وهدة التعاسة والشقاء)

(أما المعركة القائمة اليوم فوجهة بكل ما فيها من قوة إلى القضاء على هذه العقلية الاسيوية والحالة جليلة واضحة فليست تجد في أوروبا مثقفاً أو غير مثقف يمضى في أعماله متراكلاً على سلطة الوحي أما في آسيا فإنك لا تجد شيئاً اللهم إلا الأنبياء والقديسين والحكام الذين يستمدون سلطتهم من الله مباشرة .

تجد الأوامر والنواهي القدسية متغاغة في تضاميف العديد الأوفر من الشئون الخاصة المصروفة للناس محكمة في كل وجه من وجوه حياتهم الاجتماعية

(١) اعتمدنا في نقل هذه الفقرات على ترجمة الأستاذ الفاضل اسماعيل مظهر

والاقتصادية والتجارية والإدارية ولديهم أن هذه الأوامر والنواهي هي أوامر الله ونواهيه وعلى هذا لا يمكن تبديلها أو تكييفها فإذا تبدل الزمان وتكيفت وجمدت هذه الأوامر والنواهي مقصورة على اللحاق بروح العصر نشوء أوارتقاء لا تجد من شيء اللهم إلا نبيا آخر مرسلًا بتعاليم جديدة ولا مزية في أن تتابع ظهور الأنبياء في آسياله طابع خاص بها لا تفاضلها فيه بقعة أخرى من بقاع الأرض)

(لم تكن الديانات في تاريخ آسيا كاه إلا حركات رجعية أملت لها الغيرة التي تزود بها كل رسول جديد ضد الرسل الأقدمين . ان ديانات آسيا كافة واحدة في جوهرها فإن تعاليم بوذا وكونفوشيوس وبراهما وموسى وعيسى ومحمد كلها واحدة فإن اختلفت فإنها إنما تختلف في التفاصيل لا في القواعد)

(إن مشيدوا العقلية الآسيوية وواضعوا قواعدها لم يتوانوا على أن يجعلوا أساسها الاعتقاد بأن الحق في هذه الحياة تقليدي لا عقلي ولكن نسأل ما هي التقاليد ولماذا لا يكون لدينا من الحرية ما نستطيع به أن ننظر في هذه التقاليد نظرة تحليل نحكم فيها العقل : تلك التقاليد التي لم تسم بنا يوما إلى أفق السعادة والحرية والثروة ومعرفة حقيقة الإنسانية بل كثيرًا ما عضدت أسباب التعاسة والشقاء وقرت جذور شجرة الاستبداد التي تمتع بشمراتها الرئيس الروحي خلال كل الأزمان ، وبما أن هذه التقاليد لم توضع إلا لتطبق على الإنسانية فإن العقل الإنساني يحس ضرورة بأنه مفسور على أن يبحث في أصلها ونشأتها وما هيته ليعرف ان كانت التقاليد سمومًا قاتلة أم أنها عقاقير لقمان السحرية)

(إن من أبلغ السفسطة أن تقول بأن العقل الإنساني لا يستطيع أن يدرك الحقيقة إن كل الذين أوصلوا لنا هذه التقاليد وبشوها في نفوسنا قد اتخذوا العقل الإنساني وسيلة لبثها . وما هذه التقاليد لدى الواقع إلا مجموعة من السفسفات لا يمكن أن تقاوم قوة النقد ساعة واحدة ولم يكن في استطاع أحد من ناطقي هذه التقاليد (الأنبياء) أن يوحى اليها برسالة تساعدنا على اختراع آلة من الآلات أو استكشاف السكرباتية أو البواخر أو الطيارات أو التليفون اللاسلكي

أو مبادئ الطب التي تساعدنا على مقاومة داء السرطان أو السل أو غيرهما من الأمراض ولقد ثبت في روعنا اليوم أن ما يجب أن يوحى إلينا به من العالم المجهول إنما ينحصر في مثل هذه العلوم لخير الإنسان والإنسانية وإذا قلبت تاريخ آسيا برمتها منذ أبعد العصور إلى اليوم لما استطعت أن تلتقي في سفرك الطويل بقديس واحد من أولئك القديسين الذين اتخذوا العلم للقداسة طريقا في حين أن تاريخ الدنيا يفيض بذكر الكثير ممن هم من هذا الطابع الخالد أولئك الذين استكشفوا الحق وعرفوا الحقيقة . أولئك الذين آمنوا بأن الحق عقلي لا تقليدي . لا الذين ظلوا طوال الأعصر ينتظرون الوصول إلى الحق من طريق التقاليد ولا شبهة في أن رجال آسيا وهذه عقليتهم لا يستطيعون أن يدركوا من الحقيقة شيئا)

« لقد عدونا بأن نلقن بأننا عبيد الخليفة (ظل الله فوق الأرض) وأنا له ملك ومتاع وهذا يتضمن بالضرورة الاعتقاد بأنه ليس لدينا من شيء يمكن أن يقاوم قوة خليفة الله الواحد القهار . المتربع فوق عرش الأرض وأنه لن يكون من نظام إجتماعي أثبت أصولا من اجتماعنا ولا حياة دنيوية أسعد ولا أمتع من حياتنا بينما كانت الحقائق الملموسة ترحى لنا كل حين بأن في أنحاء مملكتنا فقر وجوع ، وأن جزءا بعد جزء من أطراف الإمبراطورية كان يؤخذ عنوة ورغما منا بها واغتصاها ، وكانت لنا حكومة هي أضعف من أحط الحكومات الأوربية متردية في حماة الرشوة مفككة الأوصال مضطربة الأحوال بعيدة عن حكم الشرائع والآداب ، وأننا كنا نستجدي الغرب في كل شيء نحتاج إليه ومع كل هذا فقد كان لدينا (ظل الله فوق الأرض) وأربعون زوجة من زوجاته « وأربعون غلاما ممن تعرف ولا أذكر ، لا شغل له إلا أن يحمل الشعب على أن يتجرع فكرة الجنة ونعائنها على ما وصفها رجال المذاهب القديمة . كان قد أصابنا الانحلال في الداخل ، ولم يكن لدينا من سبيل لكي نفهم الحق أو نعرف الحقيقة إلا بأن نتصل من طريق ما بالمعرفة الأوربية ، وأن نعترف بتفوق العقلية الغربية وأن نكسب على درس الأساليب التي غرست الشقاق

والتعاسة في أرض من كنا نعتقد أنه (ظل الله فوق الأرض) ولما فعلنا بان
لنا (أن ظل الله فوق الأرض) لم يكن شيئاً اللهم الا صنم مفقود القوة
والروح كأى صنم من اصنام بوذا في الهند وكان لنا بمحمد أسوة فكما انه حطم
أصنام مكة والمدينة كذلك نحن حطمنا اصنام الخلفاء والمذاهب القديمة والتكيا
والقبور : وهذا هو معنى الثورة أما نتائجها فسوف تكون عظيمة لخير الأمة
وسعادتها في المستقبل)

هذه، بعض فقرات من الكتاب تحمل في طياتها كما قرأت هذه السخرية
والسخط على الدين ورجال الدين والداعين اليه والمؤمنين به والعاملين له وليس من سبب
لذلك أو أردت أن تدرس الناحية السيكلولوجية لهذه البيئات التي اختمرت فيها بذور
هذه الثورات جميعها الاسباب واحد - سبب شنيع بغيض مخز - سبب يحمل في
طياته أنانية الحكام وفخرهم ويفضح فيهم ضميرهم الميت وشهواتهم الخبيثة
ورحشيتهم البشعة وتضامن رجال الدين معهم في ذلك

نعم لو أراد الباحث النزيه أن يستخرج علة لقيام هذه الثورات وللبواعث التي
كانت تأتمر فيها وللقرة التي كانت تحركها الخرج بما ذكرت ، والخرج بما هو أشد هولا
وبشاعة مما ذكرت : وهو أن الذي يتحمل المسؤولية وتنصب عليه كل التبعات في
الانقلاب على الدين ، ومحاولة محوه من الوجود ، ووصمه بكل هذه الصفات كما
رأيت ، إنما هم رجال الدين أنفسهم لأنهم لم يحاولوا أن يفسروا الدين بعقلانية حرة
تجديدية ، وعلى ضوء نظام التطور والارتقاء ، وإنما قيدوا الدين ، وقيدوا أنفسهم
والمؤمنين معهم في دائرة ضيقة تقليدية هي خطر على الدين في جوهره ومعناه ،
وغايته لم يسألوا أنفسهم : ماهي الغاية الحقيقية لنزول الأديان ؟ وهل كانت تنشد
شيئا غير صلاح الانسان ورفقيه وامتيازته ، وإيمانه بالخير والمثل العليا وقتل كل شهوات
دنياه فيه ، والارتضاع به عن حيائه الحيوانية البهيمية التي كان يحياها ، وجعله
يؤمن بأن هناك أشياء أخرى كثيرة غير مطالب جسده ، واشباع غرائزه يجب أن
يعطيها شيئا من التفاته واهتمامه ، وأن يجعلها تؤثر في تكوينه ومجرى حياته ،
وأن يرتب معيشته على نظم ومبادئ من طبيعتها صلاح العمران ومنع الفساد

فالدین عندما أنزل على الرسل ليبشروا به الناس كان يحتفل بالإنسان .
وعنصره وكان يؤمن به وينشد له تنظيم حياة راقية صافية فيها سعادته ونعيمه
ولسكن رجال الأديان في كل زمان ومكان الذين لم يعاصروا انبياءهم ورسلهم
وانما اتوا بعدهم بفترات غير قصيرة لم يسألوا أنفسهم عن شيء من ذلك
وانما فسروا الدين على هواهم ، وفي حدود التقاليد والرجعية التي لا تخلو من الكذب
والافتراء فحرقوا الإنسان وزهدوه في دنياه ، وشجعوا الناس على حياة الذلة
والمسكنة والخضوع والخنوع وقتلوا فيهم كل روح للتجديد والابتكار وعدم
الاحتفال بحياتهم التي يحيونها : زهدوهم في كل شيء الا في أن هناك حياة أخرى
يجب أن ينفقوا كل وقتهم وحياتهم للعمل لها وحدها ، وان يقاطعوا كل عمل
يتصل بحياتهم الدنيا ، لينقطعوا للزهد والانكسار والقبوع في كسل وخمول
يردون الفاظاً بأفواههم لأن ذلك هو ثمن سعادتهم الآخرة :

يصورون ذلك كله بما يدعرون إليه ويعمل له الدين والدين من كل ذلك براء
ان المتدين العاقل البصير يسأل نفسه أول ما يسأل عن الغاية من وجود
الدين ، وعن الغاية مما ينبغي تحقيقه من المبادئ والنظم والآراء ثم يتبع هذه
الغاية بأية وسيلة تقربه إلى تحقيقها التحقيق الصحيح ولا حرج عليه أن يختلفت
وسائله والوسائل التي كان يدعو إلى اتخاذها الدين ، لأن العبرة والمعول على الجوهر
وليس على الوسائل ، ولأن الوسائل كثير أما تتغير وكثيرا ما لم تعد تصلح وذلك
بحكم الزمن والتطور « أما الغاية فهي الجوهر في كل شيء لأنه غير قابل للتغير
بحكم لانهائيته وبحكم طبيعته الخالدة » والأديان السماوية في طبيعتها لا تمنع في ذلك
لأنها قد نزلت لتخاطب العقل الحر بحكم أنها كانت تنعى على العقل التقليدي الرجعي
فسكان من طبيعتها وديدينها الجدل والنقاش والافحام لأنها هي الأخرى كانت
جديدة على العقل الإنساني بحكم ما سبقها من الوان التفكير التي اتخذها العقل مادة
له في بداءته الأولى ولذلك كانت هذه الكتب السماوية نفسها تنعى على الإنسان جموده
وتنكر عليه عقليته هذه الرجعية التقليدية التي لا تؤمن بالقديم إلا لأنه قديم ورثته
عن آباءها وأجدادها ، والتي تنفر من الجديد لأنه جديد تخشى أن يغير ما ألفته من

معيشة وما تواضعت عليه من حياة والانسان بطبيعته يركن إلى ما ألف ولو كان فيه تعاسته ، وينفر مما لم يألف ولو كان فيه سعادته والمتصفح لسكر الكتب السماوية يظهر له كل ذلك في غير عسر ولا إلهام :

كان هذا هو الشر الأول والاثم الكبير الذي ارتكبه علماء الدين في حق الدين ثم أتى الخلفاء والأمراء فحكموا الناس حكما أو تقراطيا محضا يبيحون لأنفسهم ما لم يبيحونه لرعاياهم لأنهم يعتقدون ورعاياهم يسلمون لهم بذلك أنهم خلفاء الله في أرضه يتصرفون فيها كيفما يشاءون وحسبها يهودون يميزون أنفسهم عن رعاياهم في كل ظرف من ظروف الحياة ومع ذلك نرى رجال الدين يقرؤونهم على ذلك ويخدرون الناس بتلهيتهم عن حياتهم هذه الدنيا ليحفظوا بالآخرة مما جعل أكثر المفكرين الأحرار في كل ثورة فكرية أو انقلاب تحريري يغضبون هلى الدين ويسبونونه ويرمونونه بكل نقيصة ويحملونه مسؤولية تاخر الانسانية وانحطاطها وترديها في هذه الهاوية السحيقة التي لولاهم ولولا انشغالهم لها لقضى عليها قضاء لا رجوع فيه مما ظهر لك في أول هذا الكتاب وأهل سائل^{الذين} أنى بعد ذلك لماذا وضعت هذا الكتاب ؟ ، وأنا أجيبه في قوة وشجاعة ، وفي غير دوران أو التواء أننى وضعت هذا الكتاب لأدافع به عن الدين الصحيح ، لأكشف عن جوهره ، وأهتك النقاب عن غيابه وما يرمى إليه ، لأظهره للناس عاريا صافيا خالصا مما علق به من أوهام وخرافات وخزعبلات أعلم أنه يرى منها وأنه ينكرها على نفسه وينكرها ممن الصقوها به بذية سليمة لجهلهم وغباوتهم ، وعدم ادراكهم ، أو ممن الصقوها به بسوء نية لما آريهم الجشعة وشهواتهم الفهممة ، ونزعاتهم الخبيثة

نعم لقد وضعت هذا الكتاب لئلا دلل به على أن الدين في جوهره وغايته لا ينكر التقدم ولا يخاصم التجديد ، وإنما يشجع الارتفاع بالفرد والاجتهاد به : كما يشجع تنظيم الجماعات ورقيا . كما أنه يقر اجتهاد الانسان وسريته وافكاره البصيرة . وما يسعى له من حياة ممتازة ومثل عليا
إنى لا يتسم في سخريه مريرة عندما أقرأ لبعض متعنى الصوفية ومترهيبهم

والزاهدين المتخلعين عن ركب الحياة : ان الحياة ما هي الا كعبة حذاء من العيث
الاحتفال بها وان الرجل الذي يحتفل بحياته ويعبد ويسعى في أن يوفر لنفسه
حياة راقية ممتازة هو رجل مكروه من الرب بعيد عن السماء سائر في
طريق الضلال

ولو تبسطت مع هؤلاء الناس . وأردت أن تسير غور تفكيرهم . وأن تصل
إلى مداركهم لتستخرج من ذلك كله صورة لتظهرهم الى الحياة ، وتفسيرهم لحقيقة
الوجود لمالك الأمر وافزعتك الحقيقة ، ولرجعت مشفقا عليهم راثيا لهم با كيا
هلى حالهم وتخططهم وضلالهم

ان هؤلاء الناس الذين يتشددون بحب الرب والقرب من السماء مغضوب
عليهم من ربهم ، بعيدون عن السماء حاملين لعنائها وسخطاتها فهذه الاشارات
التي أتت في كل الكتب السماوية مرهدة الناس في الحياة الدنيا منزلة من قيمتها حاططة
من قدرها ليس معناها أنها تدعو الانسان إلى ان ينكر وجوده وحقيقته وأن
لا يتمتع بكل ما طاب له ولذ ما بسطه الله وإنما ترمى إلى معنى سام رفيع تدركه
العقول البصيرة والقلوب النيرة ، وهو محاربة الجشع والبطر والاستغلال
الرخيص ، وقتل شهوات الانسان الخبيثة ، ومحاربة كبريائه وغروره والحد من
حيوانيته النهمة التي لا تتفق ونظام العمران

إن الانسان بطبيعته وجبلته مفطور على الغرور وحب الذات والتمتع
والاستعلاء على حساب غيره من الضعفاء والمساكين ولو ترك له الأمر لاستبد
وتكبر وطفى وهدد الانسان والعمران في سبيل لذائذه وشهواته ونزعاته
الحيوانية فيكون من نتيجة ذلك ماذا ؟ يكون من نتيجته تأخر العمران
وانقراض نوع الانسان فهذه الاشارات التي أتت في الكتب السماوية
محقرة الدنيا منزلة من شأنهم تسكن تقصد الامثل هؤلاء الطغاة القساة المستبدين
الذين كانوا يسمعون في الأرض فسادا يقاتلون ويعتدون لا شيء الا انزعاجات
طارئة وشهوات فاجرة يعيشون في همجية متواصلة قانونهم الاعتداء والسلب
والاغارة على الضعفاء من بني جنسهم يتصرفون فيهم كما يشاءون بالبيع أو الرهن

أو يقتلونهم ويفنونهم من الوجود ولا اعتراض عليهم في ذلك لأن هذا قانون متعارف بينهم : الحق للقوة ، والزعامات لمن يسلب ويعتدى ويغير على الغير والدارس لكل البيئات التي انزلت عليها هذه الديانات يرى ماذا ؟ يرى أنها يكيّفون حياتهم على هدى غرائزهم ، ويسلمون قيادتهم لمن يظهر البطش والقسوة والظلم عليهم يدينون للطاغية ويعبدونه ويؤلهونه . يشكرون ذاتيتهم وفرديتهم لا في سبيل الصالح العام ولا في سبيل نفع المجتمع الذي يعيشون فيه وإنما لأجل نزوات حاكمهم ووليهم فهم قطيع عنده يسخرهم لجمع المال من غير طريقه الشريف وتوفير لذائذه البهيمية التي ترجع بالإنسان القهقري إلى الوراء حيث كانت تسوده شريعة الغابة ، وشريعة الغرائز التي تقرر بأن (الكل للقوى ولا شيء للضعيف)

الدارس لكل هذه البيئات يرى مجتمعات يحتفلون بالحياة حقيقة ويحبون أن يوفروا لأنفسهم فيها الرفاهية والسعادة والهناء ولكنهم لا يفعلون ذلك بجهدهم وثمره أعمالهم وما يستعبدونه في سبيل ذلك من آلام ، وإنما يبطشهم واعتدائهم على حقوق الغير وطمعهم في سلب ما لا يملكون ، لا يحتفلون بهذه الحياة ولا ينظرون إليها بمنظار التفكير والعقل والبصيرة ، وإنما بمنظار الحيوان الشره المفترس الجبار الكافر بقانون النظام وقانون التعاون وقانون الاخاء فهذه الاشارات لم تكن تعنى إلا هذه المجتمعات التعسة التي تخضب ايديها بالدماء في سبيل لذائذ فانية ولكنهم لم تكن تعنى أبداً إنكار الإنسان نفسه وعمل الإنسان لندياه وحشه على الكشف والاختراع والتطور في حياته بدليل ما أقرته من النظم التي اصطنعها الإنسان لنفسه مثل التشريعات اليونانية والرومانية التي أدجبتها في تشاريعها ادماجاً مما سنجد ذلك عنه بأسباب في موضعه من هذا الكتاب عندما نتحدث عن علاقات الأديان بعضها ببعض

ولا يطأ وعنا القلم أن نمضى دون أن نرجع ثانية إلى هذه الفئة من المتعشقين المستندين المنكرين للحياة فنسألهم : ماهي حقيقة الرب الذي تعبدونه وما هي حقيقة السماء التي تعطف عليكم ؟ وهل يكره الرب أن يرى خلقه في جمال وقوة ونضارة وحياة ؟ وهل عظمة الخالق تسكون أروع وأعظم في بقاء الحياة على حالها بخير تقدم بل

بتأخر : أم بتطور الحياة واستغلال خيراتها ومواصلة البحث لاستخراج أسرارها ، والانتفاع بما أودعه الله فيها من مزايا وعناصر قوة وارتقاء
إني لأسائل هؤلاء الناس وفي جوانحي أسأ ، وملء في دهشة من تخبطهم وظلوعهم ، ومن ضيق مداركهم وظلام بصيرتهم

إني لأسألهم : كيف عرفتم الله ؟ وكيف توصلتم إلى حقيقة السماء ؟ وهل إيمان الانسان بالله بعد تفكير وتعقل وتأمل خير ؟ أم إيمانه به بالتقليد والسمع والانقياد ؟

نعم اني لأسألهم هذه الأسئلة ولأكني ان أسمع منهم جواباً لأنهم يتشككون في مقدرة الانسان وقوته يحدونها ويكفرون بها بل إنهم ليسكفرون بالانسان جميعه وبكل ما وهبه الله من ميزات وصفات وفضائل ميز بها وفضله على كل العالمين وعلى جميع المخلوقات

فالانسان عندهم خلق من قاذورات وركب من نتانة فأصله وضعيف حقير : ومن هنا يستعذبون الذلة والمسكنة وتعذيب أنفسهم وعدم السعي في الحياة ناسبين ذلك كله إلى واجبات الله وأوامر الدين وتنزيلات الكتب المقدسة مستغلين بعض آيات من التنزيل كانت تأتي لتعالج مشاكل خاصة في بيئات معينة لظروف كائنة ضاربين صفحاً عن التنزيل في مجموعه وفيما يهدف اليه ويبنى تحقيقه ولأكننا لا نحب أن نتمادى في ذلك كثيراً ، وإنما نعرض هنا هذا العرض البدهي وهو هل تأتي معرفة الله الحقيقية المؤيدة بالدلائل المادية بطريق غير العقل ؟ وهل يكون العقل صافياً خالصاً مليئاً بالقوة والحياة في جسم غير سليم صحيح ؟ وهل يتوفر الجسم السليم الصحيح بدون أن يأخذ الانسان حظه من المتع البدنية ويوفر لنفسه ما شاء من طيبات الحياة

وهكذا نرجع فنجد الانسان هو الكائن الممتاز ونجد حياته هي الحياة لا نقول الجديرة بأن يعتز بها ويعمل لها ويحرص عليها لا نقول ذلك فقط وإنما نقول فوق ذلك إنها هي الحياة التي بها عرف الخالق ، والتي هي استمداد لمعرفة قدرته وعظمته وبديع خلقه : فإذا أراد انسان أن يسمو بحياته ويرتفع بها

وأن ينقب ويفتش ويسخر كل ما يمكن تسخير له لمنفعته ومصلحته من أسرار الأرض والسماء والهرام ، وأن يعتز باستقلاله التفكيرى والعقلى فى اصطلاح ما يلائم حياته الحديثة من نظم ومبادئ وقوانين قالوا له قف مكانك ! إنك تأمر بغير ما نزل الله ناسين أو متجاهلين أو متغابين أن الله لا يكره أن يرى فى مخلوقه استعدادا للتطور والخلق والابتكار لأنه هو الذى أودع فيه تلك القدرة ، ولأنه من قوة المخلوق تسببان مقدرة الخالق ولأن الله لم يكن يرسل أنبياءه ورسوله الا عندما كان يفلس الانسان وينفد رصيده من بواعث التقدم والارتقاء .

وماهى حقيقة السماء ؟ هل حقيقة السماء شئ غير درس الطبيعة وكشف ما وراءها من غموض وأبهام ؟ وإذا فليقل لنا هؤلاء الناس المقربون من السماء لماذا نجهد فى معرفة حقيقة الطبيعة أو ما وراء الطبيعة وما فيها من شمس وقمر ونجوم وعوالم أخرى بل لماذا وجدت فيها هذه الشمس والقمر والنجوم والعوالم الأخرى الأجل أن نتففع بها فى حياتنا هذه الدنيا ونسخرها لاستغلال أرضنا التى ندب عليها أم لأجل أن تنكرها وتميزوها وعلوها ليعجل بنا ذلك كله الى حياتنا الآخرة ! إن كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة ، بل من ظواهر السماء تنادى بالحياة وتعمل على تنمية الوجود وإحيائه وازدهاره والتقدم به بخفى سريعة الى الامام فمن يقف ومن يتخلف فى الطريق فلن يحفل به أحد وسيدوسه الركب وان يبوء الا بالندم والهلاك والضياع

وإذا فأنا لم أضع هذا الكتاب إلا لأجل أن أبعد به هذه المعتقدات الباطلة وهذه المزايم المضللة التى إن دلت على شئ فأنما تدل على جهل فاضح بحقائق الكون وأسرار الوجود ، ورسالات السماء

إننا لنسمع كثيرا من علماء الدين ومن كتاب يتعرضون للدراسة والبحث فى مسائل الأديان ونظمها ومبادئها وقوانينها فيبرزون لنا ماسمونه المادية والروحانية زاعمين أنهم ما ضدان متخاصمان متنافران لا تربطهما ببعضها صلة كبيرة أو بسيرة

ومن هنا ننظر وينظر معنا القارئون والآخذون عن هؤلاء العلماء فنجهد

أمامنا مشخصين قائمين متخاصمين مشخصا يرمز إلى المادية والآخر إلى الروحانية
مشخصا يشمل العلوم وما يدخل فيها من كافة العناصر الطبيعية والجيولوجية
والقوانين الصناعية ورسائله البحث والتقصى والتجربة والاختبار والكشف
ثم الاختراع والخلق ، وإضافة كائن إلى الكائنات له أصول وآثار مختصة كاملة
تحتاج إلى من يعالجها ويكشفها ويعرف أسرارها وهذا هو مشخص المادية
أما مشخص الروحانية كما يبسطه ويفسره رجال الصوفية وبعض علماء الدين
فإنه يشتمل على ماذا ؟ إنجده يشتمل على العلوم النظرية ثم على الزهد والقناعة
والتحقير من شأن الدنيا والنخس والمناقشات البيزنطية الشديدة العنيفة لكل
مظهر من مظاهر المادية

وهكذا سادت هذه المهزلة - مهزلة رجال الصوفية وبعض علمائنا الدينيين -
الذين ضللوا الناس لغباؤهم وجهالاتهم وأخذهم بالظواهر والقشور ولغضاؤهم عن
الجوهر واللباب ففسروا لهم الروحانية قائمة بنياتها مضادة للمادية في كل شيء بل
قالوا لهم إن المادية خطر على الروحانية ، وإن اجتماعهما ببعض فيه تعريق لقوانين
الحياة وفساد لنظام العمران وإشاحة عن أوامر الله ومن هنا جعلوا الروحانية
وحد هذا المثل الأعلى للإنسان ، وهي السمرة الذي لا يصل إليه إلا كل إنسان رفيع ممتاز
ونحب نحن قبل أن ندخل في مناقشة هذه المسألة ، وقبل أن ندلل على أن
المادية من صميم الدين ، وأنها تشغل حيزاً غير قليل من رسالات الكتب السماوية
نحب قبل أن ندخل في هذا النقاش أن نوجه سؤالاً بسيطاً إلى هؤلاء السادة
الأفاضل : وهو هل من الممكن أن يدلونا على إنسان أو على مجتمع خاصهم المادية
وأنكرها ، ولم يخضع لها في مجرى حياته وعمر على ذلك طويلاً ؟ أما إذا كان
الجواب بالسلب وهو بالسلب حتماً لأن الإنسان بطبيعته وخلقه مادي لأنه
ابن للمادة خلق منها ويعود إليها يخضع لها خضوعاً تاماً سواء رضى ذلك أم لم
يرض وسواء أواده مختاراً أم مكرها

وعلى ذلك فإنا نحب أن نقرر هنا مستمدين ذلك من روح الأدب
وتشريعها جميعاً نحب أن نقرر بأن المادية لا تصلح إلا بالروحانية ، وأن الروحانية

لا تعيش بدون المادية

وعندما ننظر إلى بعض الديانات التي جاءت تدعو للروحانية ولم تحفل بالمادية في شيء يذكر مثل الديانة المسيحية نجد أنها لم تكن تحارب المادية أو تخصمها أو تنكرها : وإنما جاءت فوجدت مجتمعا خاضعا لماديته كل الخضوع غارقا في حيوانيته إلى أذنيه ، قائما حياته على هدى غرائزه فدعت إلى الروحية لا لتحارب المادية أو تخصمها أو ترتفع عنها وإنما ليتكيف مع بعض فتصلح الروحانية المادية ، وتقوم ما اعرج فيها وما شذ من طباعها

من هذا يظهر لنا أن المادية متماسكة بالروحانية كل التمسك وأن الروحانية متعلقة بالمسادية كل التعلق وأن للانسان يخضع في حياته للباديات ويتأثر بالروحانيات بل من هذا يظهر لنا أن رسالات الديانات السماوية نفسها حثت الانسان على السعي نحو الماديات بعد أن يسموها ويخضعها لأحكام العقل البصير الرشيد فاذا جاءنا بعد ذلك شيخ ، أو قسيس ، أو حاخام وقال لنا : ان الدين يدعو إلى الروحانية ويحذرها ويعمل لها ، وينهى عن المادية وينكرها ويحاربها بكل سلاح من أسلحته لأنها خطر على الانسانية وسم زعاف فيه هلاك للبشرية فاذا يكون جوابنا عليه ؟

يكون جوابنا عليه أنه ساذج في تفكيره ، ضعيف في عقله ساذج في ضلاله يكون جوابنا عليه أنه بعيد عن جوهر دينه ، هادم لغاياته وما يرمى اليه من إصلاح شأن الانسان في حياته التي يحياها والتقدم به بخطى سريعة نحو التطور والسمو والكمال

يكون جوابنا عليه أنه مخالف حتى لمنطقه لأنه هو نفسه خاضع للمادية مستعين بها على أداء رسالته ، وأعمال وظيفته

إن جميع الأديان السماوية في جوهرها وغاياتها لا تنشد إلا شيئا واحداً : وهو تكوين مجتمع إنساني راق نظيف عامل مفيد آخذ بأسباب التقدم والتطور السريع ليسعد نفسه ، وليسعد من سيخلفه بعد ذلك من أجيال

فاذا جاءنا بعد ذلك إنسان - كائن من كان - وقال لنا : إنني أتعبد للنهار وأقوم

الليل في التهجد لله ، وانتى أقف وقتى وحياتى على ذلك لأظل قريباً من الله :
قلنا له إنك كاذب مختل مخادع بعيد عن الله جاهل بتماليم دينه :
إن الله لا يريد العبادة للعبادة فقط وإنما ذلك وسيلة لتحقيق غاية رفيعة
سامية للإنسان : وهى تمسكه بالمثل العليا وتمثله بصفات الحق والعدل والحب
والإيثار ، وبكل ما هو حميد قويم وحسبنا فى هذه العجالة قول رسول الاسلام
محمد بن عبد الله عندما جاءه نفر من أصحابه وقالوا له (إن فلاناً مقيم فى المسجد
يتعبد فى النهار ويتهجد فى الليل فقال لهم من يعرفه قالوا كنا نعوذ به يا رسول الله فقال
لهم صلى الله عليه وسلم كما كنتم خير منه)

وهكذا أرانى رغماً عنى أختم هذه المقدمة وفى نفسى أشياء وأسكنى لن اعدم
أن أعالجها بتطويل فيما يلى من موضوعات هذا الكتاب بيد أننى أحب قبل أن
أطوى هذه المقدمة أن أشهد الله وهو العليم بواطن الأمور أننى ما فكرت فى
تأليف هذا الكتاب واخرجه ونشره بين الناس إلا لأشياء خطيرة أحس أن
ضمير الزمن يهيم بها ، وأحس أن جيلنا هذا الحاضر قد تبلورت فيه آراء
جديدة هدامة تسبق العاصفة التى نحب أن تنفأناها ، وأن نخدم أوارها بالاصلاح
قبل أن تقوم

ولنى أشهد الله مرة ثانية وهو العليم بهواطن النفوس أننى لست متأثراً بأى
شئ ولا بأية نزعة ، وأنتى لا أستغنى فى كتابتى هذه الا بوحى الحق ولا أنشد
إلا الاصلاح ما استطعت راجياً من يقرأ هذا الكتاب أن يخلع عن نفسه رداء
التعصب وأن يستقبله بعقل حر وبوجدان سليم غير متأثر بأية عاطفة حتى
يمكن أن تؤتى ثمرته كما نرجوها (والله ولينا وهو نعم المولى ونعم النصير)

